حين آسلم دزرائيلي الروح بدا منتصرا فائزا، هذا ما قاله مرافقه اللورد روتن، وأضيف أنا الناظر أنه انتصر بعد الموت أيضا، فبعد أقل من عام ونصف من رحيله، (للدقة أربعة عشر شهرا)، ضربت بوارج الحورية الإسكندرية واحتلت جيوشها مصر. (لابد أن أتوقف لأشرك القارئ في سبب تلك الابتسامة التي توشك أن تصبح ضحكا. للحوريات في خيالنا شكل معلوم، وللحورية في الخيال الإنجليزي ويسمونها «فيري» شكل آخر معلوم أيضا، فهي مخلوق مدهش يأتي أفعالا ساحرة ينتصر فيها للطيبين ويحقق لهم أمنياتهم، وغالبا ما يظهر هذا المحلوق في شكل صبية أو امرأة هشة نحيفة خفيفة الحركة. كيف استطاع دزرائيلي أن يجمع بين الحورية والملكة فكتوريا؟ وكانت لعلم القارئ امرأة سمينة يكاد ثقل التاج يدفع برأسها المدور الصغير للغرق في امتلاء كتفيها وصدرها مسقطا دور الرقبة! لم أجد رقبة في أي صورة لتلك «الحورية» التي جلست على عرش بريطانيا أربعة وستين عاما، وأضافت في عام ١٨٧٦ إلى لقبها الإمبراطوري اسم الهند، درة التاج كما يقولون، وحكمت عبر القارات بلادا تمتد من الهند الغربية الواقعة بين الأمريكيتين إلى شبه القارة الهندية).

نعود لحكايتنا. أرسلت الحورية بوارجها وجيوشها لاحتلال مصر، واحتلتها.

هناك شخص لا تكتمل الحكاية دون الإشارة إليه، لا يبدو ظاهرا تماما في الصورة، ولكنه موجود بل وأساسي. في رسالة ٢٥ نوفمبر كتب بنجامين لسلينا إنه لم يعرض صفقة أسهم قناة السويس على البرلمان، فمن أين أتى بالمَلايين الأربعة؟ وفرها له في يوم واحد صديقه البارون لايونيل ناثان ماير دي روتشيلد.

توقف الناظر، قال: سيخلط القارئ بين هذا الروتشيلد والروتشيلد الآخر الذي وجه له وزير خارجية بريطانيا بعد أربعة عقود من واقعة بيع الأسهم